آفاق وسياقات
تشرين الأوّل ٢٠٢٤ / العدد ١ – ص. ١٨٦-١٨٧

الخروج مِن الهوامش إلى الدولة

رجال الدين الشيعة والحداثة اللبنانيّة (١٩٢٠ – ١٩٧٨) [1]

أحمد مُحسن

تمرّ هذه الأطروحة بين فتراتٍ تأسيسيّة ثلاث في تاريخ لبنان الحديث. الفترة الأولى، هي فترة انهيار السلطنة العثمانيّة وانتقال لبنان إلى الحكم الفرنسي المباشر، ولا سيّما جنوبه، حيث يقع «جبل عامل» موضوع هذه الدراسة هو ورجال الدين المُنتَسبين إليه والخارجين مِنه لا عنه. الفترة الثانية، هي فترة الاستقلال اللبناني، وبداية ظهور المؤسسات الإداريّة المنبثقة عن هذا الاستقلال. أمّا الفترة الثالثة، فتقع بعد ذلك، وتصل إلى الربع الأوّل من الحرب الأهلية اللبنانية؛ أي إنّ ما تدرسه هو الحراك الديني – الاجتماعي، لثلاثة أجيال من رجال الدين الشيعة اللبنانيين.

لكن هذه الدراسة ليست تأريخًا للبنان أو لجنوبه؛ إنّها محاولة لزعزعة السرّديات التاريخيّة الراسخة، فما تحاول معالجته بالتحديد هو مواقف وأدوار هذه الأجيال، في تشكيل الخطاب الشيعي العام وحمايته والدفاع عنه، خلال المراحل الانتقالية في سيرة الدولة اللبنانية بصورتها الحديثة، التي خضعت بدورها إلى إعادة تعريف وتعرّف إلى التحديث في وجوهٍ متفرّقة. هذه الحداثة التي تتمثل في العلاقة مع الدولة التعاقدية، بما مثّلته هذه الدولة كمدخلٍ أساسي لتنظيم العلاقات بين الأفراد، وعلاقة الجماعات ببعضها لبعض، كما تتمثل مظاهرها في جوانب أخرى، لا سيّما تردّد وصول المهن البيروقراطية الجديدة، ورواج خطابات المساواة والعدالة الجندريّة، بالإضافة إلى الحقلين الاقتصادي والثقافي حيث تقع عملية التحديث بوتائر سريعة غالبًا، وتكون في غاية الكثافة.

(١) إشراف البروفسور رولا تلحوق

إنّ ما تعالجه هذه الأطروحة بالضبط هو موقع الجماعة الشيعية في المجتمع اللبناني، انطلاقًا من وعيها لذاتها، وآليات تشكّله المتتابعة بإشراف قادتها وتنظيرهم، بدءًا من مؤتمر وادي الحجير – الاجتماع الرسمي الأوّل لأعيان الجماعة في العصر الحديث، وصولًا إلى إخفاء الإمام موسى الصدر في ١٩٧٨. ولأنّ الدراسة حاولت الالتزام بأكبر قدر ممكن من الموضوعية، ولا سيّما بالاعتماد على أكبر كمٍّ من المصادر المتاحة، فإنّها تجنّبت ذكر الألقاب الدينية، من دون أن يكون المقصود في ذلك التقليل من أهميتها، وأحقيّة أصحابها بها بما هو سائد منها. ذلك أنّ جزءًا من هذه الألقاب، على تداولها، يبقى موضع نقاش فقهي وتاريخي، لم تصل الدراسات إلى حسمه بعد. إلى ذلك، لن يجد القارئ سجالًا مع دراسات سابقة، ذلك لأنّ موضوعها، يتقاطع مع سلسلة كبيرة من الدراسات، إلا أنّنا لم نجد في الدراسات السابقة، ما يجمع بين الحداثة كخطابٍ متواصل وشائك يشمل الكثير من الدوائر، وبين تجربة رجال الدين في مواجهتهم لهذا الخطاب. وقد لاحظنا أنّ عددًا كبيرًا من تلك الدراسات، اعتمد في أدواته التحليلية على سرديّات مهيمنة تاريخيًّا، ولا سيّما في التأريخ، وفي فهم الجغرافيا، وفي مسألتين أساسيتين، أوّلهما إهمال اللامساواة الجندريّة في تاريخ الفقيه وارتدادات هذا الإهمال على الحاضر، وثانيهما، يتعلّق بالعلاقة مع المدينة، بما تشكّله من مختبرٍ لتنظيم العلاقات وفقًا لأنماط مختلفة عمّا يكون سائدًا في الأرياف. مع ذلك لا تدّعي هذا الدراسة أيّة فرادة، بل يمكن إدراجها في سياق محاولات إنتاج معارف جديدة من خارج التقليد السلطوي الذي هيمن على الحقول المعرفية لوقتٍ طويل. يمكننا – بشيءٍ من الحذر – اعتبارها محاولة أخرى للدفاع عن المجتمع وعن المدينة.

كلمات مفتاحيّة

الشيعة – الدولة – تاريخ لبنان الحديث – الاستقلال – الخطاب الشيعي – الجندريّة – الإسلام السياسيّ.